محمد رابح فيسة

مقياس العمار التقليدية ماستر 2

المحور الثاني:

المحاضرة الثامنة : تابع للمحاضرة السابعة

المعايير المتبعة في تحديد المناطق الريفية:

إن استعمال المقارنة بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية في الدراسات الأثرية أمر صعب ،وذلك بسبب اختلاف المعايير والأسس التي تتبعها الدول في تحديد وتصنيف المدينة والقرية[1] والقول بأن الريف قد انتهى أو بدأ،وباعتبار أن لكل من المنطقتين أسس وخصائص تميزها عن نظيرتها.

ومع ذلك يقرر الكتاب السنوي الذي أصدرته الأمم المتحدة عام 1952 حسم الخلاف بين الباحثين بأنه لا توجد نقطة معينة تصلح كمعيار حازم يفصل بين الحضر والريف لكن التفرقة اعتبارية أي أن كل دولة تفصل بين ريفها وحضرها حسب ما تراه مناسبا لظروفها[2]، وفيما يلي بيان بعض المعايير التي يمكن اتخاذها كأساس لتحديد المناطق الريفية.

المعيار الوظيفي (الاقتصادي):

يتبين لنا هذا المعيار من خلال إذا عرفنا أن هذه المنطقة الريفية يعتمد سكانها في معيشتهم على استثمار واستغلال التربة، بينما تكون غيرها من المناطق الحضرية مركزا عمرانيا يشتغل سكانه بحرف غير زراعية ،وطبقا لهذا التعريف تعتبر الزراعة الأساس الاقتصادي الأكبر لسكان المناطق الريفية نظرا لاشتغال غالبية السكان بها وهي القاسم المشترك الذي تنسجم فيه وتتجانس حياتهم بدرجة معقولة وتختلف عن حياة المجتمع وبخاصة في المدينة[3]،لذا اعتبر الريف خلفية للمدينة من خلال مدها بالمنتجات التي تحتاج إليها وتزويدها بالخراج ومختلف أنواع الضرائب[4]،ولعل هذا المعيار هو السمة الغالبة على قرى بني سنوس إذ تعتبر الزراعة بمختلف نشاطاتها عاملا رئيسيا وموردا هاما بالنسبة للسكان فلا يخلو بيت من البيوت إلا وتجد معظم أفراده أو بعضهم يمتهنون الفلاحة أو تربية المواشي أو غيرها من النشاطات التي اشتهرت بها المنطقة،وتتعدى هذه النشاطات التي تعود بالنفع على القرية إلى تزويد المدينة بالكثير من المحاصيل والمنتجات التي أوجد لها هؤلاء القرويون سوقا بقرية الخميس ببني، سنوس والتي لا تزال إلى يومنا هذا مقصد الكثير من تجار القرية وحتى القرى المجاورة.

المعيار البيئي:

يعتمد هذا المعيار في أساسه على طريقة حياة السكان وارتباطها بطريقة بناء المستوطنة البشرية ،فالبيئة الريفية تتميز بالبساطة الشديدة وبسيادة المناظر الطبيعية والبدائية،والارتباط الوثيق بالأرض والفلاحة وتربية المواشي،كما تتميز البيئة الريفية بأنها من صنع الطبيعة بدرجة أكبر من البيئة المدنية التي تعتبر من صنع الإنسان إلى حد كبير[5] ،وفي البيئة الريفية تسود مواد البناء المحلية البسيطة كالطين واللبن ونحوهما ،وتقل فتحات مساكنها وتصغر مساحاتها[6]،ويبدوا هذا المعار بقرى بني سنوس من خلال موقعها الطبيعي وتضاريسها المتميزة التي اعتبرها السكان مادة خام بتوظيفها في شتى مناحي الحياة،وتتعدد استعمالات هذه المواد الطبيعية ،حيث نجدها على شكل مواد بناء كالجبس الذي وجدت له الكثير من الأفران التقليدية في أطراف القرى ، والتي كانت تطهى فيها المادة الأولية للحصول على الجبس الذي استعمل في البناء كمادة واصلة أو ما يعرف بالملاط ،وأيضا استعمال الخشب في التسقيف والأبواب والمنافذ ،وأيضا لدينا الحجارة التي تتوفر في المنطقة بكثرة والتي استعملت في مختلف المباني وبطرق متعددة ،ولا يقتصر استعمال المادة الأولية على مواد البناء فقط بل إننا نلحظ استعمال بعض المواد الأخرى التي توفرها المنطقة بخصوصيتها كالطين ومختلف أنواع الأعشاب التي استعملت في التداوي و استعمل البعض منها في الحرف والصناعات كالحلفة مثلا التي استعملت في حرفة النسيج،وهناك الكثير من المواد الأولية الأخرى التي استعملت بكثرة وإن دل ذلك فإنما يدل على مدى ارتباط حياة الأفراد في هذه القرى بالبيئة المحيطة بهم.

المعيار الاجتماعي:

ويسمى أحيانا بالنظرية السلوكية أو الاجتماعية ويأخذ به علماء الاجتماع إذ يفسرون التجمع القروي على أنه (عقل وجسم وعادات وتقاليد) فهم يهتمون بطريقة الحياة التي تميز المجموعة البشرية في المستوطنة[7]،فيتبين لهم ذلك من خلال الروابط والعلاقات البشرية بين سكان المستوطنة الريفية بسبب أواصر القرابة ووحدة النشاط الاقتصادي والديني ،بين أفراد الأسرة الواحدة من جهة وبينها وبين غيرها من الأسر الأخرى في القرية وكل شخص فيها يعرف الدخلاء من السكان الأصليين كما يمكن للفرد الواحد تحديد شجرة العائلة بكل دقة،وهكذا يتضح أن المعيار الاجتماعي هام في تحديد التجمع العمراني الريفي ،فقط يجب أن يتحلى الباحث بالصبر لأنه يحتاج إلى وقت لاكتشاف الخصائص التي تميز السكان[8]،ويتجلى لنا هذا المعيار في قرى بني سنوس من خلال حفلات الأعراس و الجنائز التي يشترك في أدائها كل سكان القرية،فهم يفرحون لفرحة أحدهم ويحزنون لحزنه،ولدينا أيضا ما يعرف لديهم بالتويزة وهي التعاون فيما بينهم لاجتهار المياه أو تنظيف العيون والمنابع التي تستعمل في عملية السقي وتوريد المواشي،ولدينا الكثير من المظاهر التي يشترك فيها سكان قرى بني سنوس تدل على مدى التلاحم والتآزر بين أفراد هذا المجتمع الريفي.

المعيار التاريخي:

يمكن لنا من خلال المعيار التاريخي أن نعطي للقرية ميزة القدم من حيث النشأة والعمر إذا ما قورنت بالمدينة بصفة عامة وذلك أن الريف هو أساس المدن (الشكل رقم:3) والداعي لظهورها ونشأتها للقيام بوظائف إقليمية لخدمته،لم تكن القرى تستطيع القيام بها بنفسها ،ويرى البعض أن التاريخ يمدنا بتعريف واف للمدينة ،فالآثار التاريخية الموجودة في أية قرية كافية لشرح وجودها أكثر من سكانها[9]،ولعل عمر المنشآت المعمارية الموجودة بقرى بني سنوس خاصة المساجد العتيقة تدل على مدى أصالة تاريخ هذه القرى وقدمها في التاريخ فقد رجحت بعض الدراسات الأثرية أن عمر هذه المساجد قد يرجع حتى الفترة الزيانية ،وليست المساجد وحدها بل إن عنصر المنازل أيضا يدل على مدى أصالة المنطقة تاريخيا خاصة تلك التي تقع بمحاذاة المساجد[****].

ويضيف بعض الباحثين معايير أخرى كالمعيار الإحصائي والسلالي والمعيار المركب وهناك معيار آخر يمكن اعتماده في تحديد المستوطنة الريفية وهو معيار العين المجردة حيث يعتمد فيه الباحث على ما تراه العين في البيئة الاجتماعية والطبيعية ،فالمدينة تمتاز بمظاهر العمران والكثافة السكانية والورش والفنادق والمطاعم والمحلات الكبرى...الخ ،فهي منطقة حضارية أما إذا فقدت هذه الشواهد في المنطقة تعتبر ريفية [10].

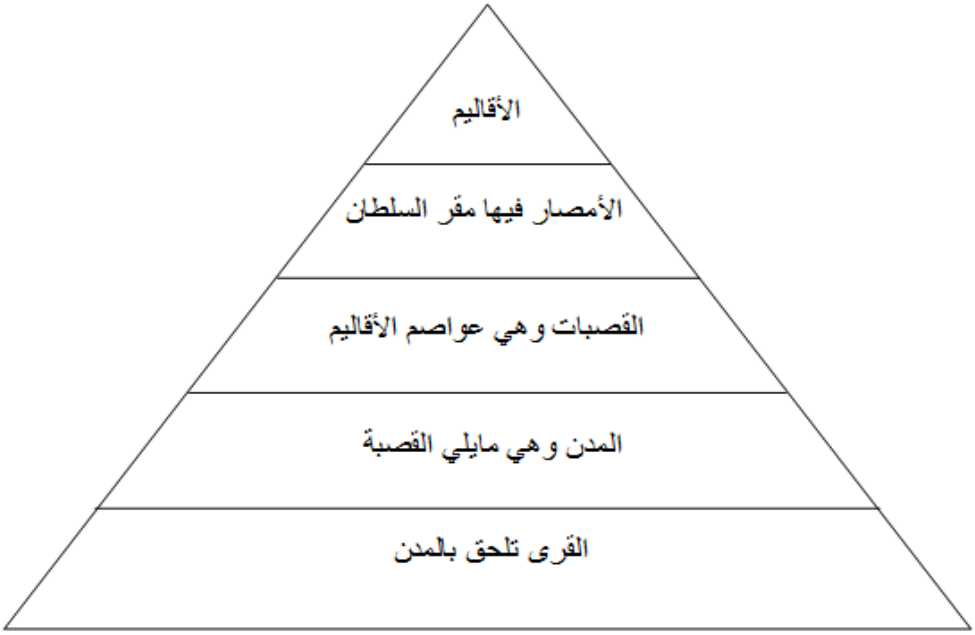

الشكل رقم: 2 تصنيف المستوطنات البشرية في القرن الرابع الهجري **عن**:رائد أحمد صالحة، **محاضرات في جغرافية العمران**،ج1،الجامعة الإسلامية غزة ،السداسي الثاني،2012.ص 87.

شروط حدوث العمران الريفي:أنظر(الشكل رقم:1)

لكي تكون عملية الاستقرار في الريف عملية ناجحة ويجد فيها الإنسان غايته وكل ما تصبوا إليه النفس البشرية لا بد من توفر مجموعة من الشروط هي:

توفر المياه، توفر الأراضي الزراعية ،توفر الأراضي الرعوية ،توفر الوقود ،ثم توفر مواد البناء،وتتفاوت أهمية هذه الشروط في التجمع السكاني الواحد فتحتل المياه الدرجة الأولى ثم

تأتي الأراضي الزراعية في الدرجة الثانية ثم الوقود وأراضي الرعي متساويان في الدرجة الثالثة ،ثم مواد البناء في المركز الأخير[11]،وبمفهوم آخر فإن موضع القرية أو المستوطنة الريفية هو عبارة عن التفاعل بين إمكانية الحصول على المياه والأراضي الزراعية والأراضي الرعوية والوقود ومواد البناء وقد يكون في بعض الأحيان لأحد هذه العوامل مرتبة يفوق بها بقية العوامل الأخرى[12]،وفيما يلي سنختصر على شرح عاملان أساسيان لا بد من توفرهما لنشأة العمران هما:المياه والأراضي الزراعية .

1- المياه:

تعتبر المياه من أهم العوامل التي تفسر أسباب اختيار الإنسان للموضع في البيئة الريفية وهذا ما يترجم تجمع المساكن الريفية عادة حول البئر أو الينبوع المائي أو بجوار الأنهار والمجاري المائية الأخرى[13] ،وبانعدام الماء لا يمكن للتجمع السكاني في أي موضع وبأي حال من الأحوال الإقامة والحياة،فبانعدامه تنعدم الحياة،ولا يزال سكان قرى بني سنوس يعتنون بالمياه المتوفرة في قراهم واستعمالها في شتى مجالات الحياة الريفية،فهي سبب من أسباب الاستقرار وكل قرية من القرى نجد بها عينا أو منبعا بل إن قرية الخميس وبني عشير قامت حول وادي الخميس الذي لا تزال مياهه مصدرا طبيعيا هاما يستعمله السكان في مختلف نشاطات الحياة اليومية من سقي وغسيل وتوريد للمواشي والأبقار إلخ...،وفي قرية تافسرة نجد منبع العين الكبيرة يتوسط القرية ويستعمله السكان في عملية السقي التي أوجد لها السكان طرقا تقليدية توارثوها عن أجدادهم يتم من خلالها تحديد أقساط المياه الخاصة بكل أسرة من الأسر تمتلك أرضا أو بستانا ليتم سقيه وفق نظام تعارف عليه سكان القرية منذ القدم.

2- الأراضي الزراعية:

يعيش أغلب سكان الريف على الزراعة واستثمار التربة إذ لا تستقيم حياتهم إلا بها فقد لجأ الإنسان منذ القدم إلى الأراضي السهلية لما لها من مزايا فهي تسهل الحرث واستخدام العتاد الفلاحي ،ثم استطاع الإنسان بفضل جهوده المتواصلة إلى استيطان الشعاب الضيقة وسط الجبال والسفوح الجبلية واستغلالها[14]،وهذا ما يظهر جليا في المناطق التابعة لقرى بني سنوس حيث يواصل سكان هذه القرى العمل في الأرض وزراعتها الموسم تلو الآخر بدون كلل ولا تعب وهذه الميزة تغلب خاصة على سكان التجمعات السكنية الدائمة على العكس مما نجده في التجمعات الريفية المؤقتة والتي يغلب عليها طابع الترحال .

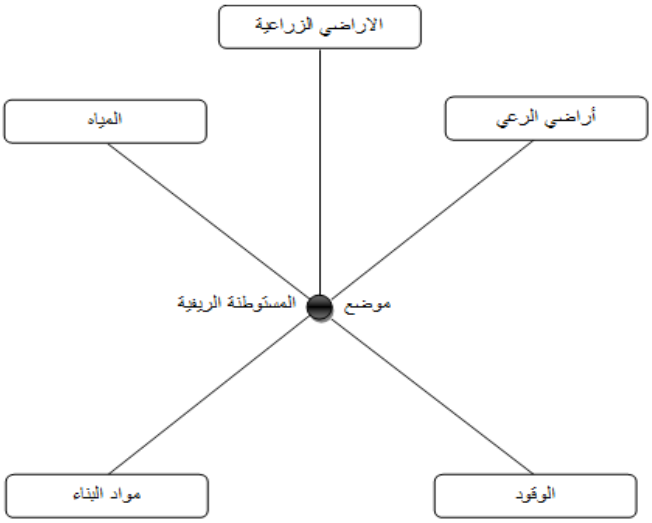

الشكل رقم :3 شروط العمران الريفي عن : السيد خالد المطري، ص71.

أنماط التجمعات العمرانية الريفية:

1- التجمع السكني المؤقت:

يعتبر هذا النوع من التجمع مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية أو هو تجسيد لتركيبة اجتماعية أراد من خلالها السكان إبراز خاصية معينة أو نمطا معيشيا دأب عليه أهل القبيلة أو الجماعة بحيث يمارس من خلاله نشاط ما ،فقد اشتهر مثل هذا النوع من التجمع السكاني عند الصيادين والرعاة وحتى المزارعين البدائيين وكذا البدو ومن الأعراب ،فهم يسكنون الخيام، بل إنه يحدث أن الجماعة تتفرق في موسم فيقل ترابطها الاجتماعي وتكون النتيجة أن ينعكس ذلك على نوع السكن[15]،وغالبا ما تكون هذه التجمعات موسمية يتنقل أفرادها من منطقة لأخرى بحثا عن المراعي للمواشي والأغنام التي يمتهنون تربيتها ،والتي تعتبر ميزة من ميزات ووظائف هذه التجمعات.

2- التجمع السكني الدائم:

ويتمثل هذا النمط من التجمع السكني فيما يعرف بالقرية ،فهي المحلة التي يعمل أهلها بزراعة الأراضي أو فلاحة البساتين ،فقد يأوي إليها السكان الذين يجمعون بين الرعي والزراعة وهي تتميز عن المدينة في كونها بعيدة عن ممارسة الصناعة والتجارة اللتان تلعبان دورا ثانويا في حياة القرويين ،ويعتقد بعض الباحثين أن ارتباط الإنسان ببقعة معينة من الأرض قديم جدا أنظر(الشكل رقم:4) حيث بدأ بزيارة موسمية يلتقي فيها أفراد العشيرة ويتبادلون المنافع ويقدمون القرابين لموتاهم ،ثم لما زاد ارتباطهم بالأرض بعد قيام الزراعة أقاموا المساكن الثابتة وحفروا على مقربة منها أو فيما بينها مقابر لموتاهم ولم ينسوا بيتا لمعبودهم ،ويعتبر هذا الجانب الروحي من بين أهم العوامل التي أدت إلى استقرار الشعوب الزراعية القديمة[16]،وهذا العامل بالذات نجده في قرى بني سنوس ممثلا في الأضرحة والمساجد التي يتمسك بها سكان القرية أيما تمسك ،فهي تتخذ مواقع هامة من القرية لموقعها من قلوب السكان وحياتهم اليومية ،أما تاريخ هذين النمطين فقدم، ولكن يغلب

على الظن أن القرى المتكتلة هي الأقدم فقد عرفها الزراع القدماء في وديان الشرق الأوسط قبل أن يبدأ التاريخ[17].

الشكل رقم:4 منحنى يبين تطور العمران البشري عن:
http://geomatics.topgoo.net

خاتمة:

في الأخير يمكن القول بأن العمران الريفي بمفاهيمه العميقة تتجلى مظاهره من خلال تطبيقاته على أرض الواقع بما يعرف بالوسط الريفي أو حيز القرية ،كما أن المعايير التي يتم من خلالها معرفة التجمعات الريفية وتمييزها عن المدينة تبدوا واضحة ، خاصة والنموذج الذي بين أيدينا والمتمثل في الريف التلمساني وبالتحديد قرى بني سنوس حيث لا يزال إلى يومنا هذا يشهد تكرار تلك الظواهر العمرانية لا لسبب إلا لعراقتها ومدى تجذرها في المجتمع الريفي،حيث أنها تمثل بحق نموذجا حيا عن التجمعات الريفية الدائمة ،وهذا ما يميزها عن التجمعات الريفية المؤقتة التي تكون وليدة ظروف معينة وترتبط ارتباطا وثيقا بنوع معين من الحياة يتم فيه في الغالب مراعاة بعض الشروط كالبحث عن مناطق تشتهر بالرعي أو بالمياه لأن سكانها غالبا ما يقومون بالترحال من أجل مواشيهم وأغنامهم ،وولا يخفى علينا كباحثين أنه في الآونة الأخيرة طرأت بعض التغييرات على ذهنية وتفكير سكان الريف بسبب مواكبة الريف للركب الحضاري الذي تعرفه المدينة ،وكذا تقليدهم لبعض

الظواهر التي أفرزها احتكاكهم بالمدينة بسبب ظاهرة الهجرة الريفية ،والتنازل عن بعض القيم والعادات التي عرف بها سلفهم منذ القدم ، ومهما يكن فإن الريف وإن طرأت عليه بعض التغييرات التي مست البنية الاجتماعية ،إلا أن البيئة الطبيعية بقيت السمة التي لا يمكن أن يطرأ عليها التغيير ،فالحدود الجغرافية لهذا الوسط ومكوناتها الطبيعية تبقى الشاهد المادي الوحيد على مدى الفروق الموجودة بين الريف والمدينة حتى وإن وجد مفهوم التأثير والتأثر بينهما.